النقد العربي الحديث ومسار التحول المنهجي

الدكتور عباس محمد

جامعة سعيدة - الجزائر

النقد العربي الحديث يطل من ناحية على الخصوصية العربية، ويندفع نحو المقولات الغربية من ناحية أخرى لأجل التمكن من وعي الأطروحات ومناهجها برغم أنه راكم معرفه يصعب تسويغ الحاجة إليها في واقع مجتمعه وواقع معرفته المعاقة. ومع ذلك هل تجاوز النقد العربي الحديث الخطاب القديم أم أن المفارقة المنشودة هي إعادة ذلك الخطاب بآليات مستوردة لا تتوافق وطموح المشتغلين بالدرس النقدي؟. تلك هي الفكرة الأساسية التي يسعى هذا البحث إلى مناقشتها.

الكلمات المفتاحية: النقد الحديث - الخطاب - التجاوز - الدلالة - المصطلح - الثقافة - الأدب

The Modern Arab Critics and the Methodical Transformation Path

Abstract

The modern Arab criticism, on the one hand, overlooks Arab privacy, and is pushed towards Western statements, on the other hand, in order to be able to be aware of the theses and their curricula, despite the fact that it is difficult to justify the need for them in the reality of society and the reality of their disabled knowledge. However, has the modern Arab criticism exceeded the old discourse or the irony desired to return that discourse with imported mechanisms that are not compatible with the ambition of those engaged in critical studies? That is the basic idea that this research seeks to discuss.

Keywords: Arab privacy, curricula, criticism, irony, critical studies

النقد بوصفه نشاطا فكريا:

إذا كان في حكم المجمع عليه، أن النقد الأدبي هو في التحدد فعل قرائي بعدي، يستوجب عموما إبداعا قبليا، يباشر قراءته، ويشتغل عليه، بغرض إثارة الأسئلة، وبناء التأمّلات، ومقاربة الإشكاليات، منه وفي محيطه، لاستكناه خطابه النوعي بنية ودلالة، فإن مما لا يحظى بالإجماع تحديد مفهوم قار ونهائي لمصطلح النقد ذلك أن المفاهيم في هذا الشأن تتعدد وتباين وتتعارض، لأن المراحل التاريخية المؤطرة، والحقول الثقافية الساندة، والمرجعيات النظرية الحاضرة، متعددة ومتباينة ومتعارضة بالضرورة.

وفي الحق، ليس في وارد نيتنا تتبع كل السيرورات والصورات التي تحكمت في ذلك التعدد والتباين والتعارض، لتقديرنا المتواضع أن كتابات كثيرة، قديمة وحديثة، عربية وأجنبية، أفاضت القول في ذلك.

النقد العربي الحديث ومسار التحول المنهجي

ما يعيننا أكثر، فيما له علاقة بموضوعنا، هو الإعلان ابتداءً، أن النقد في تقديرنا وفهمنا - مع التوكيد على نوعية وخصوصية خطابه - مكون أساسي من مكونات النشاط الفكري. فهو في سيرورته كان ولا يزال مرتبطاً كأوثق ما يكون الارتباط بالوضع الثقافي العام، وبالنتيجة بالشرط التاريخي. فـ « ليس النقد حقلاً بريئاً، ولم يكن كذلك أبداً... فللنقد تاريخ هو أكثر من مجرد وصف اعتباطي للأفعال النقدية »⁽¹⁾.

ونحن نقدر ذلك كذلك، انسجاماً مع تقديرنا وفهمنا للأدب الذي عليه يشتغل النقد، بما هو أيضاً - مع التوكيد على نوعيته هو الآخر وخصوصية خطابه - جزء من وضع ثقافي عاكس بالضرورة لشرطه التاريخي.

يقول جلال فاروق الشريف⁽²⁾ « لما كان الأدب والفن جزءاً من الفعالية الثقافية العامة للإنسان فإنهما يظلان مرتبطين بالشرط الإنساني في مختلف مراحل تطوره التاريخية... فلا فن إلا بالإنسان، ولا فن إلا من خلال الإنسان ».

وإذا كان هذا صحيحاً - وهو في تقديرنا صحيح - فمن الواضح الجلي، أن المهتم بنقدنا العربي الحديث، نشأة وتراكماً وتحولاً، يجد نفسه أمام ظاهرة بارزة البروز كله وهي أن هذا النقد، في معظم متنه، وفي أحسن نماذجه، ومنذ نشأته الأولى في بداية نهضتها الحديثة، تواشج وتداخل مع إكراهاتها المجتمعية الضاغطة، وتعاطى مع همومها الفكرية أسئلة وإشكاليات واختيارات، نريد أن هذا النقد اضطلع بهم فكري حامل وداعم - بتميزه طبعاً - لمشروع النهضة، وبعد ذلك لمشروع الثورة، بأبعادهما ودلالاتهما السياسية والاجتماعية والفكرية. وبمعنى أكثر وضوحاً، فإن هذا النقد في معظمه أبى منذ البداية أن يقصر وظيفته على الجانب الجمالي في تمثله وتصديده لمسائل الأدب والفن وحسب، بل هو إلى هذا، طرح نفسه أساساً، نقداً سياسياً واجتماعياً وفكرياً، لمضامين الحياة في غناها وتعدد مستوياتها، والتي صاغها الأدب العربي شعراً ونثراً.

ونحن لانكشف عن جديد إذا ذكرنا بمضمون الممارسة النقدية عند الغالبية العظمى من رموز هذا النقد، على ما بينهم من تفاوت في الفهم والوعي والمنظور، بدءاً من حسين المرصفي وقسطاكي الحمصي وروحي الخالدي، وصولاً إلى محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس وحسين مروة وغالي شكري، مروراً بطله حسين وعباس محمود العقاد وأمين الريحاني وعمر فاخوري ورثيف خوري وجميل سلطان ولويس عوض ومحمد مندور، وغيرهم كثير.

يقول سعيد يقطين⁽³⁾ «ومن السمات الأساسية التي يمكن الإشارة إليها هي أن الناقد العربي منذ عصر النهضة وهو يشكل الصوت الثقافي والاجتماعي المتميز: فهو النائر والمناضل والمثقف، وهو الصحافي والجامعي والأكاديمي، يريد قراءة النص لأنها قراءة للمجتمع والتاريخ،

وهو يخاطب قارئاً يريد التأثير فيه ليعانق الأفكار التي يدافع عنها. هذا الصوت النقدي تشكل في ظروف وسياق تشكل المجتمع العربي الحديث».

النقد والمرجعية المزدوجة:

نعم، من الصحيح أن النقد نشأ «في أدبنا المعاصر مثل نشأة أدبنا نفسه، فكان في أول عهده محاكاة لنقد الأقدمين... فنزل إلى حلبة النقد رجال امتلأت جمعيتهم بما وقفوا عليه من نقد القدامى من مثل "طبقات الشعراء" لابن سلام، و"أدب الكاتب" و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة، و"نقد الشعر" و"نقد النثر" لقدماء بن جعفر، و"الموازنة بين أبي تمام والبحري" للأدمي، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي ابن عبد العزيز الجرجاني، و"درة الغواص" للحري، إلى غير ذلك من كتب النقد فتأثروا بها وأداروا نقدهم على مواضع الزلل يتلمسونها في الألفاظ التي تند عن القياس أو السماع، ويتقصونها في المعاني المبتذلة أو المطروقة أو المسروقة»⁽⁴⁾.

ولعل هذا ما يفسر طبيعة المعارك الأدبية والنقدية التي دارت رحاها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حول مواضع الزلل والغلط في الألفاظ والتراكيب، وكان خائضوها نشطاء الحركة الأدبية والنقدية من أمثال: أحمد فارس الشدياق وناصر اليازجي وابنه إبراهيم وبطرس البستاني وسواهم.⁽⁵⁾ وكان هاجس هذه المعارك ربط الجسور مع إرث "النقد المنهجي" في عصوره الأولى الزاهية، وتخطي "الحصيلة الهزيلة" لما يعرف بعصور الانحطاط.

غير أن الصحيح كذلك، أن نقدنا العربي الحديث أخذ لاحقاً، يجتهد في الخروج من إسار الدرس اللغوي والبلاغي، الذي رسف نقدنا في أغلاله طويلاً، وراح يتوجه بكل العنفوان المتاح، والطاقة الممكنة نحو مقارنة النص الإبداعي، بوصفه كلا نوعياً، وبالدرجة الأولى بوصفه نصاً له دلالاته السياسية والاجتماعية والفكرية، فضلاً عن الجمالية، أسوة بفكر النهضة المؤطر له، والذي سعى هو الآخر إلى نبذ التخلف والتقليد، ونشدها التححر والتحديث والتقدم.

يقول فيصل دراج⁽⁶⁾ «نشأ النقد الأدبي العربي الحديث في عمومية نظرية، تتحدث عن الجديد الأدبي والاجتماعي والسياسي في آن...ولهذه العمومية ما يبررها ويسوغها، ذلك أن الدفاع عن (حدائث أدبية) والنقد الأدبي ظاهرة حدائثية، لا معنى له خارج مجتمع حديث في علاقاته الأدبية وغير الأدبية».

وهكذا، ومع إطلالة القرن العشرين، بدا واضحاً أن نقدنا العربي الحديث، شرع يعمل على تجاوز ذلك الوضع المومى إليه أعلاه، وعلى فتح أفق ينشد المفارقة، نريد أن نقدنا العربي الحديث انخرط في دينامية الاستلهاً والتعاطي، بفهم يغتني ويتجدد بتعمق وعيه المستمر بأدواته وإكراهات مجتمعه، مع مجريين أساسيين: «مجري الثقافة الأوروبية، ولا سيما نزعاتها

النقد العربي الحديث ومسار التحول المنهجي

الاجتماعية أو علومها الإنسانية ذات النزعة الاجتماعية، وهي التي كانت تهتم بتحليل الواقع الإنساني وظواهره تحليلا اجتماعيا، وتقوم الظواهر الأدبية والفنية تقويما اجتماعيا خالصا أو إيديولوجيا خالصا... ومجرى الواقع الاجتماعي العربي في نضاله السياسي ضد السيطرة عليه من الخارج أو من الداخل. وكان هذا الواقع يزخر بالتناقضات الاجتماعية والمشكلات السياسية والاجتماعية، وكان ذلك كله يحمل إلى الحياة الأدبية عناصر رؤية جديدة إلى الأدب، وإلى علاقاته بالمجتمع وتعبيره عن الواقع ومشكلاته»⁽⁷⁾.

ويضيف محمد الكتاني⁽⁸⁾ راصدا ما أفادته الحركة الأدبية العربية من انفتاحها على هذين المجرىين: «ولقد أثمر المجرى الأول النظرة الواعية إلى علاقة الأدب بالمجتمع أو بالحياة الاجتماعية، وتأثره بعواملها وحتمياتها، واحتوائه لكل ما تزخر به من نزاعات وتيارات وقيم ومشاعر وأذواق، وانعكاس ذلك على النقد الأدبي نفسه، وعلى مناهج الدراسة الأدبية. وأثمر المجرى الثاني الوعي بضرورة التزام الأدب بالواقع الاجتماعي، وتعبيره عن مشكلاته، وإسهامه في حركة النضال التقدمي للمجتمع العربي أو للقوى التقدمية في العالم العربي».

التحول المنهجي وإشكالاته:

وبناء عليه، فإنه قبل بداية القرن العشرين، يجد الباحث المهتم حرجا في الإقرار بوجود «منجز نقدي» في ثقافتنا العربية، له من تحدد المعالم ووضوح السمات ما يجعله حقيقا باسمه. و الأكثر منه، فإن الباحث المهتم يجد إخراجا حتى في الإقرار بوجود «نقد أدبي» بالحمولات المعرفية والمحددات المنهجية لمصطلح «نقد»، كما استقر في الثقافة الحديثة. إن أقصى ما يطمئن إليه الباحث المهتم، وهو بصدد الحديث عن هذا الأمر، قبل بداية القرن العشرين، وخاصة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هو توافر مجموعة من الخواطر الانطباعية الذاتية، والمحاولات النقدية اللغوية والبلاغية، القاصرة عن مقارنة النص الإبداعي في أبعاده، والنص هنا على العموم هو النص الشعري.

وواضح أننا نحدد بداية القرن العشرين، بوصفها بداية مفترضة للنقد العربي الساعي إلى التماهي مع مفهوم النقد بالمواصفات التي أومأنا إليها أعلاه. وذلك لاعتقادنا أن المجتمع العربي عرف مع هذه البداية جملة من التحولات التاريخية والاجتماعية والفكرية، وهي التحولات التي جعلت العرب والمثقفين من ضمنهم، في مواجهة مباشرة ومصيرية وإشكالية أمام معرفة الآخر (الغرب)، وهي المعرفة التي كانت قد قطعت أشواطا بعيدة وراكمت منجزات جذرية في مقارنة الإنسان والتاريخ والمجتمع وشتى أنواع التعبيرات الثقافية، التي رتبت العلائق والمنظورات بين هذه المجالات.

وفي الحق «ليس من المغالاة في شيء، القول بأن إنتاجات الثقافة العربية، منذ بداية القرن العشرين، على الأقل، جاءت تحمل بصمات المثاقفة بدرجات متفاوتة تمتد من المحاكاة والتقليد لتصل أحيانا، إلى التمثل والفهم والتفاعل المبدع»⁽⁹⁾.

ويحدد الباحث المغربي سعيد يقطين قنوات تفاعل المثقف العربي مع المعرفة الغربية عن محيطه وسياقه التاريخيين، في التالي:⁽¹⁰⁾

1. الإطلاع عليها في منابعها عبر تعلم لغاتها (تطور التعليم) أو الدراسة في معاهدها (البعثات الثقافية).

2. اعتماد الترجمة أو تلخيص تجلياتها، ونقله إلى العربية.

3. الاستفادة من هذه المعرفة الغربية في تطبيقاتها على الثقافة العربية (أعمال المستشرقين).

ويضيف في سياق التعليق على أثر هذه المعرفة عبر القنوات التي مرت فيها: «ومهما كانت المواقف من هذه المعرفة، وفي مختلف المنعطفات التاريخية، فإن امتداداتها تظهر بجلاء في الفكر الأدبي العربي الحديث بأشكال وصور متعددة ومختلفة»⁽¹¹⁾.

وهذا يعني، من ضمن ما يعني، أن النقد العربي، متأثرا بجملة امتدادات الثقافة الغربية، التي صارت تظهر بجلاء في الفكر الأدبي العربي الحديث، أخذ يتصادى مع المسار النقدي في الغرب، ويتفاعل معه معرفة ومنهجيا.

وفي الحق، إن هذا التصادي - الذي كان ثمرة للحظة الصدمة المؤطرة لإرادة الانخراط في الحداثة - شكل المدخل لتخليق منظور نقدي، يسعى لأن يكون مفارقا لما كان سائدا في واقع النقد العربي، على قاعدة استنبات ما عند "الآخر" من منظورات، ذلك «أن الحداثة العربية، ما كان لها أن تحقق أثرها، لولا مرورها بقناة القدرة الغربية»⁽¹²⁾.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف تمظهر هذا التصادي؟ وعبر أي مسار؟ هل يجوز لنا، في الإجابة، الانطلاق من التوصيف الذي رصد وحدد بمقتضاه رشيد بنحدو المسار، عندما قال:⁽¹³⁾ «أرى من المناسب...الإلماع إلى أن تحليل الأدب وتأويله في السياق الغربي (وإلى حد ما في السياق المغربي والعربي كذلك، مع مراعاة بعض الفوارق) كانا في الجملة يتمان من ثلاث زوايا متعارضة، لكنها متعايشة: فمن زاوية أولى، كان يؤرخ للأدب القومية بالتركيز على الأدباء أنفسهم (سيرهم والعوامل الخارجية المؤثرة فيهم)، مع حرص استطرادي على تصنيف أعمالهم في خانات مقررة سلفا، تبعا لعدد من المتغيرات السياسية أو المهيمنات الفرضية أو السمات الفنية.

النقد العربي الحديث ومسار التحول المنهجي _____ مجلة فصل الخطاب

ومن زاوية ثانية، كان ينظر إلى الأدب بما هو ممارسة إيديولوجية ترتبط جدليا بالبنية الاجتماعية – الاقتصادية السائدة، بحيث يصدر عنها ويعكسها لزوما. ومن زاوية ثالثة مغايرة لهذه، كان ينظر إلى النص الأدبي بما هو نشاط لغوي وتكليف شكلي لا يتعلقان إطلاقا بأية اعتبارات خارجية محتملة، ومن ثم فهو يتمتع باستقلاله الخاص كبنية مكتفية بذاتها».

قلنا: هل يجوز لنا الانطلاق من هذا التوصيف؟ ولعله كان في نيتنا إرداف القول إننا على اتفاقنا مع عمومية مؤدى هذا التوصيف، نجد أنفسنا مدفوعين إلى تسجيل جملة تحرزات على بعض ما يشوبه من نقص في الدقة.

فالواقع أنه إذا كان النقد العربي الحديث صدى للنقد الغربي، فهذا لا يجب أن يؤدي بنا إلى عددهما متطابقين كل التطابق، ذلك بأنه:

أ. إذا كان النقد الغربي قد مارس في كل تاريخه فعل الإنتاج، فإن النقد العربي قنع في معظم تاريخه بمستوى التلقي.

ب. وإذا كان النقد الغربي قد راكم إنجازاه، مستجيبا في ذلك، لجملة حاجات أملاها التطور الطبيعي لمجتمعه، ولمعارف مجتمعه، فإن النقد العربي راكم «معرفة» يصعب تسويغ الحاجة إليها في واقع مجتمعه، وواقع معرفته المعاقاة.

ج. وإذا كان النقد الغربي قد عرف سيرورة منطقية ومسوغة، فإن النقد العربي عرف انتقالات حادة ومشوهة.

د. وإذا كان النقد الغربي قد عاش تحولات طبيعية، فإن النقد العربي عرف تحولات مبتسرة. ولعل هذا ما دفع سعيد يقطين إلى رصد بعض المفارقات الدالة، في علاقة نقدنا العربي بالنظريات الغربية، وهي:⁽¹⁴⁾

1. الانقطاع: ويقصد به، أن الصيرورة النقدية في واقع النقد العربي، تتعدد إبدالاتها بتعدد المنعطفات الكبرى، والتحويلات التاريخية التي عرفها المجتمع العربي، وعند كل منعطف جديد يجد الفكر الأدبي العربي نفسه في حاجة إلى خلفية معرفية غربية جديدة، مما يعني أن هذه الإبدالات لا تتحقق على أساس تطور طبيعي وداخلي للاتجاهات النقدية في الواقع العربي.

2. التفاوت الزمني: ويريد به أن هذه النظريات الغربية التي نتلقاها لا تتفاعل معها إلا بعد أن تكون قد استنفذت في محيطها الثقافي الذي ظهرت فيه، وبدأ يتم تجاوزها.

3. الإلغاء: ويتجلى بشكل واضح في قيام إبدال على إلغاء الإبدال السابق عليه، عبر القطيعة معه بشكل جذري، بحيث لا يدع هذا مجالا للرجوع إليه للإفادة منه أو تطويره في فترة لاحقة. وأدى هذا الإلغاء دورا سلبيا في جعل معرفتنا الأدبية والنقدية لا تقوم على أساس التحول الطبيعي (من – إلى)، ولكن القفز الفوقي (إلى – إلى).

ومفهوم أن الإقرار بهذه الحقيقة، لا ينبغي أن ينسبنا الحقيقة الأخرى، وهي أن هذا النقد العربي شهد منذ البدايات الأولى للقرن العشرين تحولات مهمة ولافتة - وربما مأزقية أحيانا -، طالت في العمق بنية خطابه، وفروضه النظرية، وأساليبه في الدرس والتحليل، ووظيفته، وموقعة في البناء الثقافي العام.

ومفهوم -أيضا- أن هذه التحولات لم تكن، لا بلون واحد، ولا ببعد واحد، وإنما هي انتظمت في إبدالات أو مقاربات أو خيارات أو اتجاهات كبرى، تعاقبت حيناً، وتعايشت حيناً آخر، وتعارضت في غالب الأحيان.

وإذا كان فيصل دراج⁽¹⁵⁾، وهو بصدد رصد تراكمات هذا النقد وتحولاته، يحدد هذا الانتظام - دونما مراعاة منه لمستوى التنوع داخل كل اتجاه- في اتجاهين كبيرين هما:

1. النقد الأدبي في عمومية القول التنويري.

2. النقد الأدبي في صيغته الإيديولوجية.

فإن سعيد يقطين⁽¹⁶⁾، وهو يرصد من جهته، تراكمات هذا النقد وتحولاته، يحدد هذا الانتظام. ودونما مراعاة منه هو الآخر لمستويات التنوع داخل كل اتجاه، في ثلاثة إبدالات كما دعاها، وهي:

1. الدراسة التاريخية للأدب (المرحلة اللانسونية).

2. دراسة المضامين وأبعادها الإيديولوجية (الواقعية)

3. التركيز على الأشكال ونظريات التأويل (البنيوية وما بعدها)

ومن الواضح، أن هذه الترسيمية تسلمنا إلى مفهومين عامين للنقد: أولهما وظيفي - غائي، وثانيتها شكلاني - بنيوي⁽¹⁷⁾.

وسنحاول في دراسات لاحقة تناول هذه المقاربات بشيء من التفصيل، وبما تقتضيه العلاقة الثلاثية بين الكتابة والقراءة والتأويل.

مراجع البحث وإحالاته:

1- تيري، إيجلتون: النقد والإيديولوجيا (تر: فخري صالح). المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (2005)، ط/1، ص:34

2- الشريف، جلال فاروق: إن الأدب كان مسؤولاً. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق (1978)، ط(؟)، صص:16-17.

3- يقطين، سعيد، و(دراج، فيصل): آفاق نقد عربي معاصر. دار الفكر، دمشق (2003)، ط/1، ص:164

- 4- الغضبان، عادل: هل أدى النقد العربي رسالته (استفتاء). مجلة الآداب، بيروت (أبريل 1954)، س/2، مج/2، ع/4، ص:15.
- 5- لمزيد من التفصيل ينظر قاسم، رياض زكي: قراءة أولى لأعمال نقدية في القرن التاسع عشر. مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي- بيروت، س/6، ع/39-40، يونيو-أكتوبر 1985، ص.ص:242-263.
- 6- يقطين، سعيد، و(دراج، فيصل): آفاق نقد عربي معاصر. ص:82.
- 7- الكتاني، محمد: الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، ج/2، دار الثقافة الدار البيضاء-المغرب (1982)، ط/1، ص:727-728.
- 8- المرجع نفسه، ص:728.
- 9- برادة، محمد: تحولات مفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث. دار الفكر، دمشق (2003)، ط/1، ص:33.
- 10- يقطين، سعيد، و(دراج، فيصل): آفاق نقد عربي معاصر. ص:20.
- 11- المرجع نفسه، ص:20.
- 12- علوش، سعيد: إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي-دراسة مقارنة-المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب (1986)، ط/1، ص:29.
- 13- ياوس، هانس روبرت: جمالية التلقي – من أجل تأويل جديد للنص الأدبي (تر: رشيد بن حدو). المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (2004)، ط/1، ص:9.
- 14- ينظر يقطين، سعيد، و(دراج، فيصل): آفاق نقد عربي معاصر. ص.ص:28-31.
- 15- ينظر المرجع نفسه، ص. ص: 83 – 150.
- 16- ينظر نفسه، ص. ص: 83-150.
- 17- ينظر الأزدي عبد الجليل: أسئلة المنهج في النقد العربي الحديث. مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط-المغرب (2003-2004)، ص. ص:20-21.